



في مؤتمر احتضنته إحدى الدول الأوروبية لبحث مستقبل العلاقة بين الغرب والعالم العربي شارك فيه نخبة مرموقة من الفريقين زل أحد الغربيين لسانه فراح يتحدث عن (الأخطاء التاريخية) والتغيرات الكبيرة التي طرأت على منطقة الشرق الأوسط إبان الفتوحات الإسلامية! وأردف:

إنه من حسن الحظ أن العرب قد حافظوا على آثارنا وشواهد حضارتنا وتاريخنا في تلك البلاد!

حقيقة ليس عندي علم بحجم هذه الفكرة في الثقافة الغربية، إلا أن هناك عدداً من الوثائق الغربية التي تؤكد استحضار ذلك التاريخ.

ومنها وثيقة كامبل التي قسمت العالم كله إلى ثلاث مناطق:

المنطقة المسيحية، ومنطقة التعايش الحضاري (الشرق الأقصى)، ومنطقة التصادم الحضاري (العالم العربي والإسلامي)، وأخطر ما جاء في الوثيقة من توصيات: ضرورة إبقاء منطقة التصادم الحضاري تحت خط الجهل والتخلف، وإجهاض أي مشروع وحدوي فيها وعلى أي مستوى كان!

في الجانب الإيراني هناك استحضار للتاريخ أيضاً وبصورة أشد وإن كان بأسماء وعناوين وأقنعة مختلفة، وهناك هجوم حاد على عمليات الفتح الإسلامي، وطعن متكرر بمناسبة وغير مناسبة في قادة ذلك الفتح دون استثناء، حتى سمي أحد معمميهم تلك العمليات بالفتاحات الجنكيزخانية!

في لقاء جانبي كان أحدهم يحاول التقاط السند التاريخي للحق الإيراني في المنطقة بوجود آثار (طاق كسرى) قرب بغداد وبخضوع العراق لفترة طويلة من تاريخه للحكم الفارسي الكسروي، بينما راح أحد الساسة الإيرانيين بعد أحداث اليمن الأخيرة يبشر بزوال (حكومات البدو)!

ومؤسف حقاً أن تأتي هذه (البشارية) من على قناة عربية، وللتذكير فإن البيت الكسروي ما كان ينظر للصحابة الفاتحين إلا أنهم قبائل بدوية خرجوا من جزيرتهم بسبب الجوع وضنك العيش. وللتذكير أيضاً فإن إسرائيل قامت كلها على مقوله (الحق التاريخي)، بمعنى أن مهمة (تصحيح الأخطاء التاريخية) تسير على

قدم وساق من مؤتمر بازل حتى دخول الوثنيين في صناعة، فكل طرف يحاول أن يصحح أخطاءه التاريخية على أرضنا. في حسابات العقل تبدو هذه الفكرة فكراً مجنونة، وغير قابلة للتطبيق أصلاً، قلت لصاحبنا الذي زل لسانه بهذه الفكرة: **كيف دخلت الولايات المتحدة الأمريكية في الديانة المسيحية؟**

وكيف اجتمعت مع أوروبا في حضارة واحدة؟

ومن سيقوم بتصحيح ذلك الخطأ؟

هذا نموذج واحد من مئات النماذج التي لو فتحت بهذه الطريقة لانقلب العالم كله رأساً على عقب. في حسابات السياسة ومصالح الدول المتنفذة يبدو أن الفكرة لا تدعو كونها توظيفاً مركباً وعقداً للتاريخ، فال التاريخ له قوانينه التي لا تختلف تماماً لقوانين الكيمياء والفيزياء، ومنها قانون (تمدد القوة) وتوسعها في المناطق الرخوة، فلم يحصل على مدار التاريخ البشري ولو ل يوم واحد أن الأقوى في هذا العالم قد اكتفوا بما عندهم وتركوا ما للضعفاء للضعفاء، والحالة التي نعيشها اليوم ليست استثناءً من ذلك القانون، وإن تبدلت الوجوه والأسماء والشعوبات.

إن الجيوش الغربية التي جاءتنا اليوم تحت عنوان (نشر الديمقراطية) أو (الشرعية الدولية) لم يختلف أداؤها على الأرض عن تلك الجيوش التي جاءتنا تحت رايات الصليب، كما أن الحكم الإيراني اليوم في المشهدين العراقي واليمني لا يختلف كثيراً عن تحكمهم القديم بالنعمان بن المنذر في الحيرة وسيف بن ذي يزن في صناعة.

هناك قانون تاريخي آخر أن القوى التي ترغب بالتمدد تجد نفسها في حالة صدام حتمي، كما كان يحصل بين فارس والروم، وكما حصل في الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، حتى عاد الصراع داخل المنظومة الثقافية أو الحضارية الواحدة، كما حدث بين ألمانيا وشقيقاتها!

وأخيراً الحرب الباردة التي امتدت لعقود بين موسكو وواشنطن.

اليوم هناك تطور ملحوظ وكأنه استثناء من هذا القانون فالقوى التي تمدد في أرضنا متوافقة إلى حد كبير، ولم يحدث بينهم أي تصدام، فجنود الولي الفقيه يتعانقون مع جنود المارينز على أكثر من أرض، وربما تحت الأرض أيضاً، قاسم سليماني يأمر وينهي في الأرض التي تحتلها قوات بوش، والدبابات الحربية تتحرك أمام السفارة الأمريكية وخلفها ومن جوانبها المختلفة، دون أن يحدث احتكاك أو حتى مشاجرة كلامية.

حقيقة أن إيران ليست كفأً لتكون شريكاً للغرب، وليس عندها ما يؤهلها لذلك، وقد جرعها صدام حسين لوحده كؤوس السم لثماني سنوات، أما نكاؤها التكتيكي وممارستها للتقية السياسية فلا يمكن أن تنطلي على الساسة الغربيين كل هذه الفترة.

التقيت مرة بكاتب أمريكي متميز ومشهور وهو ليس بمسلم دفعاً لشبهة التحيز للسنة أو للشيعة فسألته عن سر هذا التوافق بين الغرب وإيران، فقال: هناك ما يشبه القرار أنه لا يسمح لأي دولة عربية مهما كانت صديقة للغرب أن تبني قوة عسكرية تخرق فيها سقف القوة الإيرانية، كما أن إيران لن يسمح لها باختراق سقف القوة الإسرائيلية.

هذه معادلة القوة التي يريدها الغرب في المنطقة، أما في الجانب الديني والثقافي فكل المؤشرات تؤكد رغبة الغرب في تقوية (الإسلام الشيعي) بالضد من (الإسلام السنوي)، وهو ما يمكن تسميته بمعادلة (القوة بالكثرة)، ثم أخذ يذكر بأن التصادم الحضاري عبر التاريخ كان مع الإسلام السنوي حسراً.

إن هذا يؤكّد أن إيران لم ترق إلى أن تكون قطباً ثانياً في المعادلة الدولية، فهي بأحسن أحوالها لا تخرج عن كونها دولة مشبوهة بعنوانها التاريخي تحاول اليوم أن تستفيد من دورها (الوظيفي) تحت خيمة (القطب الواحد)، وأن الصدام سيحصل

بصورة أسرع بكثير من المتوقع لو حاولت إيران أن تخرج عن هذا الطور.

أما نحن فمن الواضح أننا نخضع لذلك القانون التاريخي بحكم أننا نعيش الحلقة الأضعف من تاريخنا، أمام قوة عالمية مهيمنة لا تريد لنا الخير، وبين جيران لا يتورعون عن خدمة المشرق والمغرب والشيطان الأكبر والشيطان الأصغر إذا كان في ذلك ما يغيطنا ويؤذينا.

لقد أصبحت (أمجادنا التاريخية) عبئاً ثقيلاً لا نستطيع تحمله ودفع مستحقاته، كما أننا لا نستطيع حماية مقدراتنا الحالية و(ثرواتنا الطبيعية) والتي أصبحت عنصر جذب للتمدد العالمي والإقليمي.

إننا في صراع وجود حقيقي، نكون أو لا نكون، ننتبه لأنفسنا أو نكون كلنا بمختلف أسمائنا وتوجهاتنا مجرد خطأ تاريخي سيعمل الآخرون على محوه أو تصحيه!

العرب

المصادر: